كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ
رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت

جامعة القدّيس يوسف في بيروت ولبنان الكبير : أي مستقبل ؟

لمناسبة الاحتفال بعيد شفيع جامعة القدّيس يوسف في بيروت
يوم الخميس الواقع فيه ١٩ آذار (مارس) ٢٠٢٠

فخامة رئيس الجمهوريّة العماد ميشال عون،
دولة رئيس مجلس النوّاب الأستاذ نبيه برّي،
معالي رئيس الوزراء الأستاذ حسّان دياب،
نيافة الكاردينال مار بشارة بطرس الراعي، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق،
معالي الوزراء،
سعادة السفراء،
حضرات السيّدات والسادة النوّاب،
حضرات السادة رؤساء السلطات القضائيّة،
حضرات السيّدات والسادة رؤساء النقابات والجمعيّات المهنيّة،
حضرات السادة ممثّلي الجيش اللّبنانيّ وقوى الأمن الداخليّ والأمن العامّ،
حضرات السيّدات والسادة رؤساء الجامعات،
حضرات السادة رؤساء المنظّمات الاجتماعيّة – الاقتصاديّة،
حضرة الأب الرئيس الإقليميّ للرهبنة اليسوعيّة في الشرق الأدنى والمغرب،
حضرات السيّدات والسادة أعضاء المجلس الاستراتيجيّ في الجامعة،
حضرات السيّدات والسادة أعضاء مجلس الجامعة،
حضرات السيّدات والسادة رؤساء وممثّلي اتّحاد جمعيّات قدامى الطلاّب،
حضرات السيّدات والسادة ممثّلي موظّفي الخدمات العامّة،
حضرات السيّدات والسادة المعلّمات والمعلّمين،
حضرات السيّدات والسادة الطالبات والطلاّب،
أيّها الأصدقاء الأعزّاء،

مقدّمة

نحن إذ نحتفل بعيد شفيع جامعة القدّيس يوسف هذا المساء وإذ نذكر علاقة جامعة القدّيس يوسف بلبنان الكبير في كلمتي هذا العام، ألتفت مرّة أخرى نحو قداسة البابا فرنسيس، وهو المحبّ للقدّيس يوسف. قال لنا في عظته في ١٨ كانون الأوّل (ديسمبر) ٢٠١٩ إنّ هذا الشفيع القدّيس، «**الرجل الواقعيّ ذو القلب الكبير» كان «رجل الأحلام، ولكنّه لم يكن بالحالم**»، «**فالحلم هو المكان المثاليّ للبحث عن الحقيقة، ففي أحلامنا نحن لا ندافع عن أنفسنا. الله يكلّمنا في أحلامنا». ويُنهي البابا تأمّله موجّهًا كلامه إلينا: «لا تفقدوا القدرة على الحلم بالمستقبل، وبعائلتنا، وأولادنا، وأهلنا. وأنتم أيضًا أيّها الكهنة، لا تفقدوا هذه القدرة، واحلموا بالمؤمنين في رعاياكم، وبما نبغيه لهم. الحلم هو أن نفتح أبوابًا ونبقى مثمرين للمستقبل»**[١].

من خلال الترحيب بممثّلي السلطات الثلاث في بلدنا، لا يسعنا إلاّ أن نطلب شفاعة القدّيس يوسف لكي يهب حكّامنا نكهة الحلم ببلد كبير وقوّة ووعيًا عميقًا لمسؤوليّاتهم في هذه الأوقات الصعبة التي يرزح وطننا تحت وطأتها.

القسم الأوّل : لبنان الكبير : وعدٌ بالمستقبل

ولكن ها هو لبنان هذا الذي أراده أسلافنا كبيرًا، وكبيرًا جدًّا، والذين حافظوا عليه في قلبهم وروحهم، يرزح تحت وطأة أزمة سياسيّة، واقتصاديّة، وماليّة، واجتماعيّة ولا سيّما أخلاقيّة تكاد تكون مميتة.

ومع ذلك، في آخر ثلاث خُطب ألقيتها من هذه المنصّة، حذّرتُ مرارًا وتكرارًا من الإعصار الوشيك الذي يضرب البلاد اليوم. لقد دعونا بإصرار إلى مواطنة متساوية بدلًا من طائفيّة متحزّبة وممارسة الزبائنيّة في الحياة السياسيّة التي تُثير النزاعات بكافّة أنواعها وتؤجّجها وتفكّك مكوّنات الدولة اللبنانيّة.

لقد طالبنا بالخروج من الأزمة الاقتصاديّة التي تؤدّي إلى بطالة تطال شبابنا وخاصّةً خرّيجي جامعاتنا، وتدفعهم إلى الهجرة خارج بلدهم.

---

١. من أجل مراجعة النصّ بكامله، راجع الموقع الإلكتروني التالي :
https//:www.vaticannews.va/fr/pape-francois/messe-sainte-marthe/2018-12/homelie-a-sainte-marthe-joseph-charpentier-pape-francois.html

لقد قمنا بإدانة الفساد ذات النطاق الواسع والناجم عن الزبائنيّة، والذي يهدّد أسس التعليم العالي، بينما نسعى إلى تحقيق دعوتنا الجامعيّة كمهمّة في خدمة تميّز الوطن. اليوم، من المحزن أن نتبيّن أنّ توقّعاتنا المشؤومة كانت للأسف قائمة. ولكن، بالنسبة إلينا، لا مجال أن نستسلم اليوم.

لبنان هذا، ساهمت جامعتنا في نشأته ونموّه. نحن لا نزال مخلصين لالتزامنا وسنظلّ فاعلين في مجال التنمية. كجامعة، سنواصل مسؤوليّاتنا بلا كلل في ما يتعلّق بمستقبلها.

١. المؤرّخون اليسوعيّون وآثار لبنان الكبير: مارتين Martin ولامنس Lammens

كانت فكرة لبنان الكبير حلمًا كبيرًا راود جيلاً كاملاً من المؤسّسين، أعظمهم بلا شكّ البطريرك إلياس الحويّك[٢]. من دون محاولة القيام بالتوافقيّة ولا سرد تاريخ مئة عام مضت، نذكّر في هذا اليوم أنّ أكثر من يسوعيّ من بين الأكاديميّين والمُرسَلين العظماء من نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ساهموا، بفضل أعمالهم، في نشأة لبنان الكبير في حدوده الحاليّة.

أودّ أن أتطرّق إلى بعض الوجوه المثيرة للجدل في بعض الأحيان، لكنّها أثّرت بلا شكّ على مجرى التاريخ:

أوّلًا، هنري لامنس Henri Lammens، البلجيكيّ المؤرّخ والمتخصّص في الإسلاميّات، مؤلّف كتاب **تاريخ سوريا**[٣]. كان هذا اليسوعيّ أوّل من بلور فكرة لبنان الكبير منذ العام ١٩٠٢، في مقال نشرته مجلّة *Etudes* بعنوان : « Quarante années d'autonomie au Liban »[٤] («أربعون عامًا من الحكم الذاتيّ في لبنان») وفيه يرسم لامنس Lammens حدود لبنان الكبير كما أُعلِن في العام ١٩٢٠.

٢. الياس الحويّك (١٨٤٣-١٩٣١)، بطريرك الموارنة، مؤسّس جمعيّة راهبات العائلة المقدّسة المارونيّات. رئيس الوفد اللّبنانيّ لمؤتمر السلام في فرساي، في العام ١٩١٩، هذا الوطنيّ المتحمّس ناضل بلا كلل من أجل استقلال لبنان الكبير. أعلنه الكرسي الرسوليّ مكرّمًا في ٩ تمّوز (يوليو) ٢٠١٩.

٣. راجع Henri Jalabert, Jésuites au Proche-Orient, Dar el Machreq, Beyrouth, Notice no 331, I.

٤. H. Levantin (pseudonyme de H. Lammens), "Quarante ans d'autonomie au Liban," in revue Etudes, Paris, 1902.

نصٌّ آخر هو **تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار** حدّد معالم لبنان عمليًّا في مساحته الحاليّة[٥] منذ العام ١٩٠٣. في بداية الجزء الثاني، خُصِّص عرضٌ عن لبنان مقارنةً بجبل لبنان وحده، وذلك لدعم أهميّته التاريخيّة وجغرافيّته من خلال قصص المسافرين العرب والغربيّين.

في سبعينيّات القرن التاسع عشر، سبق هذا العمل كتاب آخر عن تاريخ لبنان، وهو مؤلَّف غير منشور قام بتأليفه اليسوعيّ الفرنسيّ بيار هنري مارتين Pierre Henri Martin**.** ومع ذلك، في العام ١٨٩٨، نشرت المطبعة الكاثوليكيّة لليسوعيّين ملخّصًا بعنوان **تاريخ لبنان** باللّغة العربيّة وفيه يتتبّع بيار هنري مارتين تاريخ لبنان منذ العصور القديمة في حدود لبنان الكبير الجغرافيّة[٦].

دعونا نتذكّر أنّ هذين المؤلّفين ميّزان بوضوح، جغرافيًّا وتاريخيًّا، شبه الجزيرة العربيّة في سوريا، مع تسليط الضوء على الكيان الخاصّ بجبل لبنان المدعوّ لأن ينمو ليصبح لبنان الكبير حتّى يظلّ قابلاً للعيش فيه ضمن بيئة تميّزها تعدديّة الجماعات بين سكاّنه. بالتالي، أصبح المؤلّفان وريثَي فكر البطريرك الكبير اسطفان الدويهي[٧]. بالنظر إلى أهميّة هذا الاتّجاه التأريخيّ، يمكننا أن نؤكّد أنّ هذين اليسوعيَّين وغيرهما قد أثّروا على أصحاب

٥. طبعة جديدة لمناسبة الاحتفالات بتأسيس لبنان الكبير تمّ نشرها في الجامعة اللّبنانيّة الأميركيّة (LAU)، بيروت، كانون الأوّل (ديسمبر) ٢٠١٩.
Henri Lammens, Le Liban ; notes archéologiques, historiques, ethnographiques et géographiques, Imprimerie catholique, Beyrouth, 1914.

٦. يقول هنري جالابير Henri Jalabert في التنويه رقم ٣٧، ١ وهو تنويه الأب مارتين Martin : لقد كتب مارتين «تاريخًا ضخمًا عن لبنان منذ بداياته، مخطوطة من آلاف الصفحات، (...) مؤلَّف خطابيّ لكنّه موثَّق بجدّية. (...) مقتطفات من الأب مارتين كانت قد نُشِرَت في العام ١٨٨٩-١٨٩٠ بترجمة عربيّة، (نشرتها المطبعة الكاثوليكيّة) تحت عنوان تاريخ لبنان.

٧. البطريرك إسطفان الدويهي (١٦٣٠-١٧٠٤) هو أحد أهمّ الشخصيّات التي عرفتها الكنيسة المارونيّة. بحسب المونسنيور حميد موراني، الفيلسوف، كان إسطفان الدويهي قد فكّر في دستور جبل لبنان ككيان سياسيّ وفي التعدديّة الدرزيّة المارونيّة كأساس للبنان المستقبل (راجع الموقع الإلكترونيّ التالي : https://ehdenz.com/news/news-of-the-parish/item/html

نظريّة تأسيس لبنان الكبير مثل شارل قرم[٨]، وبولس نجيم المسمّى بجوبلان Jouplain[٩]، أو يوسف السودا[١٠] الذين دعموا أطروحات المونسنيور حويّك.

٢. دعوة لوسيان كاتين Lucien Cattin

في شهر حزيران (يونيو) ١٩٢٠، قبل بضعة أشهر من إعلان لبنان الكبير، يسوعيّ آخر، وهو الأب لوسيان كاتين Lucien Cattin، من الجنسيّة السويسريّة والرئيس السابق لجامعتنا، ألقى نداءً حادًّا وطويلًا لقدامى الجامعة ليحدّثهم عن تحديّات إعلان دولة لبنان الكبير.

في اللحظة الراهنة، كما يقول، وهي لحظة حاسمة لاتّخاذ قرارات ستحدّد مصير وطنكم نهائيًّا، كثّفوا جهودكم. ابقوا متّحدين وصامدين في مطالباتكم؛ إنّها شرط من شروط حرّيتكم، واستقلالكم، ووجودكم. لا تتقاعسوا بل تسلّحوا باليد المعطاء فهي، على الرغم من بعض المظاهر، يدٌ وديّة؛ تسلّحوا بها من أجل إحباط مؤامرات تحبكها سياسة ملثّمة وماكرة وغيورة، وستكون ما يستوجب أن تكون عليه، ستكون يدًا محرّرة».

«إليكم أيضًا أقول، يا أصدقائي، في اللحظة التي تصبحون فيها من ذوي السيادة، كونوا رجالًا متسلّحين بالإرادة ويبحثون عن الواجب وتحقيقه بولاء ولا يعرفون الانحناء أمام النزوات الغريبة».

«أحبّوا إذن لبنان، وطنكم العظيم لبنان، أحبّوه كثيراً ؛ فمن خلاله تتوجّه إليكم كلّ أجيال الماضي بهذه الصرخة: من خلال المعاناة والصلاة والموت، نلنا استقلال لبنان؛ أنتم يا أبناءنا، بعملكم، وتفانيكم، والتضحية بأنفسكم، وبعون الله، إعرفوا كيف تمنحون لبنان المستقلّ شكلاً وطابعًا جديرَين بآبائكم؛ فليكن لبنان الغد لبنان الأيّام الخوالي ... متجلٍّ !».

---

٨. شارل قرم (١٨٩٤-١٩٦٣) هو أحد المناضلين من أجل لبنان الكبير وهو مؤلّف ديوان الجبل الملهم La Montagne inspirée، يتضمّن تصوّرًا مسبقًا للبنان الكبير.

٩. [Paul NOUJAIM]. JOUPLAIN, La Question du Liban. Étude d’histoire diplomatique et de droit international. Paris, Rousseau, 1908.

١٠. يوسف السودا (١٨٩١-١٩٦٩)، مناضل من أجل لبنان الكبير، ومحامٍ وصحفيّ، ووزير العدل، ومؤلّف لعدّة كتب حول الوطن والقضيّة اللّبنانيّة.

ملاحظة من لويس شيخو[11]

اليسوعيّ لويس شيخو، الكلدانيّ المتحدّر من ماردين، في مقالٍ نُشر في مجلّة المشرق في العام ١٩٢١، لمناسبة إعلان لبنان الكبير وتكريس البلد إلى قلب يسوع الأقدس، فكّر في المعنى النهائيّ لهذا الإعلان. بنظره، كان لبنان الكبير يتمتّع من الآن وصاعدًا، وكدولة، بحريّة سياديّة كانت لتُتَرجَم بإنشاء وطن لبنانيّ قائم على الوحدة والعلم والرخاء لجميع أبنائه. لكنّ المؤلّف يعبّر في النصّ نفسه، عن بعض التحفّظ المتشائم. في الواقع، لقد كان يخشى أن تؤدّي «المشاكل الصعبة والشاقّة، والعقبات المتعدّدة الناجمة عن الانشقاقات الدينيّة الداخليّة، والصراعات بين الجماعات، والاختلافات في وجهات النظر، والتباين في المصالح السياسيّة، والتناقض بين الآراء، إلى ضياعه وتفكّكه. كصاحب رؤية، كان شيخو يستبق ويتوقّع بتوجّس الطبيعة المتضاربة الكامنة في العلاقات بين الناس وكذلك سوء إدارة هذا الصراع من قِبَل رجال السياسة.

٣. «محبّة الوطن» للبطريرك الحويّك

مثل هذا الوضع المؤذي سيحضّ المونسنيور الحويّك، بعد ١٠ سنوات من إعلان دولة لبنان الكبير، إلى التحدّث بلهجة قاسية ضدّ الممارسة المتخاذلة في سياسة الحكم في البلاد! في رسالته الرعويّة للعام ١٩٣١، «محبةّ الوطن[12]» ، يضع المونسنيور الحويّك أُسس الحكم الرشيد، سواء للأفراد أو لقوى السلطة القائمة آنذاك. فحين توجّه إلى الموارنة وإلى المسيحيّين، قال لهم:

«علينا أن نحبّ أبناء وطننا ونعيش معهم بسلام ووئام. علينا أن نحبّ الموتى والأحياء منهم. فقد أعطونا حياتهم وجاهدوا من قبلنا في الدفاع عن الوطن، فماتوا في الوديان والحقول، وها إنّ قبورهم تذكّرنا بهم. فلنكرّم الأرض ونحبّ الأرض وندافع عن الأرض التي ضمّت رفاتهم... إنّ البشر يشعرون برابطة قويةّ عندما يفتكرون بأنّ الأرض التي حملتهم وغذّتهم، وهم أحياء، ستضمّهم في حشاها بعد الممات، فختلط رفاتهم مع بعضها».

---

١١. لويس شيخو اليسوعيّ، مؤسّس مجلّة **المشرق**، مؤلّف عشرات الكتب ومئات المقالات. سمِّي بسلطان اللّغة العربيّة، وكان على رأس رجال النهضة العربيّة ١٨٥٩-١٩٢٧.

١٢. تمّت إعادة نشر النصّ في العام ١٩١٢ برعاية جمعيّة راهبات العائلة المقدّسة المارونيّات التي أسّسها بنفسه، ٦٠ صفحة، عبرين، لبنان. النصّ الفرنسيّ هو من مؤلّف هذه الكلمة.

الرسالة الثانية من رسالته هي حثّ أبنائه لـ«**السعي في سبيل النفع العامّ من خلال العمل في سياسة الدولة وعدم التهرّب من تحمّل المسؤوليّة والانخراط في العمل السياسيّ، ليس بهدف إقرار مذهب سياسيّ معيّن، بل بقصد ايلاء الحكم العادل مكانه لصالح الجميع**».

تتّضح الرسالة الثالثة من خلال الدعوة التالية: «**أنتم أيّها المسلّطون، أنتم يا أولياء الأمور، أنتم يا قضاة الأرض، أنتم يا نوّاب الشعب الذين تعيشون على حساب الشعب الذي يقدّم لكم النفقات والمرتّبات، ويمتّع أشخاصكم المكرّمة بامتيازات خاصّة وألقاب شرف، أنتم ملتزمون، بصفتكم الرسميّة من قِبَل مهمّتكم، أن تسعوا وراء المصلحة العامّة. وقتكم ليس لكم، شغللكم ليس لكم، بل للدولة وللوطن الذي تمثّلونه. أقمتم لإسعاد الوطن، فلا يمكنكم أن تضحّوا بمصالحه من دون أن تهينوا الحقّ، وتخرقوا بنوع فادح ما يقضي به عليكم واجب الأمانة. فمن خلال ممارسة الحريّة بطريقة عادلة يصبح الإنسان مواطنًا**».

الرسالة الرابعة، وجّهها البطريرك بالكلمات التالية: «**يا له من مشهد مؤثّر يضعه أمامنا التاريخ المنصف ! ما أقلّ أولياء الأمور الذين تجرّدوا عن الميل والتحيّز للأشخاص، ناظرين إلى الجدارة فحسب! ما أكثر أولياء الأمور الذين عن ضعف عزيمة أو عن رداءة قصد أو عن حقد أو حسد يفضّلون فلانًا الأقلّ جدارة، لأنّه من حزبهم على فلان الأكثر جدارة! يقتضي من أولياء الأمور أن ينظروا إلى الأهليّة والجدارة، ولا يصغوا لصوت الدم، ولا يأخذوا بالوجوه**، **فلا يخصّوا الوظيفة المهمّة الكثيرة الرّاتب بأصحابهم والمتزلّفين إليهم معرضين عن الأكثر جدارة**».

اسمحوا لي أن أقدّم هذا التعليق السريع الذي يتضمّن ثلاث نقاط :

١. إنّ رسالة نيافة البطريرك، الأب المؤسّس للبنان، ليست موجَّهة فقط إلى جيل المسؤولين في ثلاثينيّات القرن العشرين. لا يزال خطابه موضوعيًّا للغاية. إنّه يتوجّه أيضًا إلى من يحكموننا اليوم. إنّه يذكّرهم بالقيمة التي لا تُقدَّر بثمن التي تتمتّع بها الموَاطَنة اللبنانيّة المتساوية، الواحدة وغير المجزّأة التي كان يجلّها. لقد ناشدهم بإنهاء كلّ شكل من أشكال الإفلات من العقاب.

٢. أيّ صَمَم يُصيب حكّامنا منذ ثلاثينيّات القرن العشرين وحتّى اليوم؟ أليس التحزّب العشائريّ الطائفيّ والتجاريّ هو شعارهم؟ ألا يزال يسيّر تصرّفاتهم؟ إنّ دعوة البطريرك العظيم واضحة: إذا لم يضع السياسيّون حدًّا لهذا التحزّب للمحسوبيّة، سيكون لبنان في خطر يهدّد وجوده.

٣. في دعوته إلى تغيير المواقف والسلوكيّات، كان البطريرك حويّك يُعرب عن حقيقة خالدة. اليوم، أكثر من أمس وأكثر من أي وقت مضى، لا يزال هناك وقت للقيام بذلك. لن يفوت الأوان أبدًا للقيام بذلك لأنّ الوقت قد حان للتصرّف بجرأة بغية تحقيق التغيير.

سيّداتي سادتي، أعتذر منكم على إصراري على التكرار بأنّ التغيير لم يعد خيارًا بين خيارات أخرى. لم يعد بإمكاننا تحمّل ترف المماطلة. التغيير موجود، إنّه يفرض نفسه علينا كواجب وضرورة. لقد دخل في كلّ منزل، واستقرّ في ضمائرنا لكي لا يخرج منها أبدًا.

لقد ترك لنا البطريرك الحويّك وصيّة لا تُقدَّر بثمن ونحن مؤتمنون عليها. إنّه يعهد إلينا بمعنى قيم الجمهوريّة العليا التي يتوجّب على الحكّام والمواطنين أن يحترموها ويدرجوها في واقع البحث عن الصالح العامّ المتوجَّب على الجميع. في أسس استدامة الحياة الوطنيّة، يفضّل الحويّك التعليم، وتعزيز العقلانيّة واللّغة العربيّة، وهي لغة وطنيّة لا يمكن للغة أخرى أن تحلّ محلّها مهما كانت قريبة.

أنتم تبحثون عن القيم الأساسيّة ليكون لبنان واقعًا سياسيًّا دائمًا؟ الحويّك يعدّدها على النحو التالي: التعلّق الراسخ بالمصالح والصالح العامّ، وكذلك بالمؤسّسات الاجتماعيّة وباللّغة الوطنيّة، وبشهداء الوطن، والتاريخ المشترك، ووحدة الأرض، وروح الوطن، أو الوحدة السياسيّة للعيش معًا في ظلّ الدستور وحكم القانون. وهو يقول إنّ حصانة الوطن تتشكّل من خلال السعي إلى تحقيق الصالح العامّ ومصلحة الجميع. لا يمكنكم أبدًا جعل لبنان الكبير واقعًا ملموسًا، إذا كنتم لا تمنحونه الدولة التي يستحقّها والتي يتمثّل سبب وجوده في ضمان قيم جمهوريّتنا.

القسم الثاني : الإدانات الثلاث الحاسمة التي جلبتها ثورة ١٧ تشرين الأوّل (أكتوبر).

عندما تفشل الدولة...

السؤال المطروح اليوم هو التالي: أين نحن من دولتنا الوطنيّة التي أُعلِنَت في العام ١٩٢٠، وكذلك من تعاليم أولئك الذين كانت لديهم الإرادة والاقتناع للمطالبة ببناء لبنان الكبير كوعد وكمشروع اجتماعيّ وسياسيّ؟ خلال مئة عام، عمل اللّبنانيّون على بناء الدولة التي يستحقّونها. أوّلاً، من خلال توفير الخدمات العامّة التي قامت بأفضل ما في وسعها فكانت في بعض الأحيان فعّالة وغالبًا ما كانت فاشلة، ومن ثمّ من خلال تعزيز دولة القانون، حامية الحريّات الأساسيّة والسياسيّة التي ما زلنا نفتخر بها على الرغم من كلّ التعدّيات

وحالات القمع. على الرغم من كلّ الاضطرابات التي عرفها بلدنا، أظهر مجتمعنا اللّبنانيّ صمودًا مستمرًّا في إخلاصه في حمل رسالة حقيقيّة تتضمّن احترام التعدّديّة، والحرّيات التي تُعتبَر الاسم الآخر للبنان. لقد أنشأنا أيضًا شبكة كثيفة من معاهد التدريب المهنيّ، وقبل كلّ شيء، المدارس والجامعات التي تمثّل بلدنا ورأسمالنا الذي لا يُقدَّر بثمن. واليوم، أصبحت كلّ هذه الإنجازات في خطر بسبب الليبراليّة والزبائنيّة الوحشيّتين والفاسدتين اللتين تغصّ بهما العديد من مؤسّسات التعليم العالي التي تمنح الشهادات بطريقة لاأخلاقيّة. هذه الدولة التي أُنشِأت بصبر هي اليوم غائبة للأسف.

عندما تتعثّر الدولة، تصبح السيادة فيها موضع تشكيك[١٣]، والقرار السياسّي هو الذي يصبح في حالة متردّية. عندما تذبل السلطة العامّة، فإنّ صاحب السيادة هو الذي لا يعود قادرًا على القيام بالمهمّة الأساسيّة الموكلة إليه ألا وهي الدفاع عن كلّ مواطن والذود عن حقوقه. من دون دولة، لا يعود المواطن ذلك الشخص المستقلّ الذي نبجلّه. عندما تفشل الدولة، اجتماعيًّا واقتصاديًّا وماليًّا، يجد المواطن نفسه خاضعًا للدولة الطبيعيّة التي يصفها هوبز Hobbes بأنّها «حرب الجميع ضدّ الجميع»[١٤].

في مواجهة ذلك، لا يسعنا إلا أن نشيد بردّ فعل المجتمع المدنيّ اللّبنانيّ الذي تمّ تنظيمه، وما زال يقوم بذلك، من أجل الحفاظ على تضامن العيش معًا من خلال سدّ ثغرة النقص الشديد في الخدمة العامّة بقدر الإمكان. يجب أن نُشيد بالمبادرات العفويّة العديدة التي ظهرت هنا وهناك، بهدف تلبية احتياجات الجميع من دون أي تمييز، في مجتمع تعدّدي مثل مجتمع لبنان. من دون السعي لوضع تقييم لديون الدولة اللّبنانيّة، من الواضح، كما يؤكّد أحد مفكّرينا، أنّ رجال السياسة دفعوا الدولة إلى الانهيار الأخلاقيّ الذي أدّى إلى الانهيار الاقتصاديّ والماليّ، وكذلك إلى الشلل المؤسّسيّ الناجم عن الأزمات السياسيّة التي لا تنتهي والمتتالية. المسؤولون غير القادرين على مواجهة مثل هذا الموقف، أظهروا عدم مسؤوليّتهم في شؤون الحكم، فهمّهم الوحيد هو تقاسم سرقات الدولة كما يتقاسمون الغنائم.

---

١٣. Antoine Messarra, l’Orient-le-Jour, « Les impostures sursaturées », du mercredi 4 mars 2020.

١٤. Bellum omnium contra omnes, (1651).
جملة لاتينيّة تعني «حرب الجميع ضدّ الجميع»، وهي وصف أعطاه توماس هوبز Thomas Hobbes للوجود البشريّ في التجربة الفكريّة للحالة الطبيعيّة التي أدّت إلى معاهدة Léviathan (١٦٥١).

١. التنديد بعدم أخلاقيّات السلوك السياسيّ أو الأزمة الأخلاقيّة

وجود الدولة يستوجب أوّلاً أن يقوم الجميع بالتفكير بها. فشل الدولة يعني أنّنا ضحايا ومسؤولون في آنٍ معًا عن أزمة هي في المقام الأوّل أخلاقيّة قبل أن تكون فكريّة أو سياسيّة. تتجسّد الأزمة الأخلاقيّة من خلال فقدان كلّ رجاء يُضعِف كيان كلّ فرد، ويجرّده من كلّ ثقة بالنفس، وبالتالي يؤدّي إلى الخوف من الآخر. نحن نجد أنفسنا في دولة لا تشكّل فيها الوعود العمود الفقريّ للمشاريع المندرجة في تسلسل زمنيّ من المواعيد النهائيّة المحدّدة. بعبارة أخرى، إنّها وعود من دون تاريخ يشير إلى انتهاء صلاحيّتها. كيف يمكن لعقلنا العمليّ أن يقبل عدم قدرة بلدنا على إضاءة شوارعه وساحاته العامّة، وهو الذي يفتخر بكونه منارة الشرق الأدنى والشرق الأوسط وسراجه؟

من أين تأتي هذه الأزمة الأخلاقيّة؟ أليست ناتجة عن الاستقالات المتعدّدة والتخلّيات المتعاقبة عن نُخب فكريّة وروحيّة تحتاج إليها الديمقراطيّة؟ من خلال عدم قيام هذه النُخب بدورها المواطنيّ كحُماة لمقياس القيم، تتوقّف هذه النُخب عن تحمّل المسؤوليّة الأخلاقيّة بنفسها وتدع المجتمع يُصاب بالضعف والوهن. وبالتالي، ما هو الموقف الأكثر لا أخلاقيّة من موقف الإذعان الإجراميّ للطبقة الحاكمة في مواجهة البطالة الجماعيّة التي تضرب الخرّيجين الشباب المرغمين على مغادرة هذا البلد. هل يعلمون أنّ الآلاف من خرّيجينا الشباب المُجازين يقومون بإعداد ملفّات الهجرة نحو الجامعات الأجنبيّة خارج لبنان؟

سيّداتي سادتي، اعلموا أنّ بطالة شبابنا، ولا سيّما شبابنا الخرّيجين، هي سرطان المجتمع. إنّها تُثبط معنويّات الشباب، وتنخر الديمقراطيّة وتستنفدها.

إنّ تقدّم ويلات الأزمة الأخلاقيّة مأساويّ. من أجل محاولة القضاء عليها، سيكون من الضروريّ القيام معًا بتشخيص قرائنها وأهمّها عدم الثقة بشبابنا الذي كان، قبل بضعة أشهر، ولا يزال في طليعة الكفاح من أجل دولة المواطنين. بالنسبة إليهم، يبدو الأفق مغلقًا، فلا سكن ولا وظائف ولا اعتراف بالجميل. ماذا يعني مفهوم المستقبل إذا أقصينا منه الشباب، وخاصّة أولئك الذين يحملون أفضل الشهادات التي تمّ الحصول عليها بعرق الجبين؟ ما هو المستقبل إذا لم يكن المكان يتّسع لجميع الاحتمالات التي تسمح للشباب بإظهار كلّ براعة الإنسان وإبداعه في ضبطه لقوى الفوضى؟

حالة أخرى: الخدمة العامّة. حتّى العام ١٩٧٥، كانت الخدمة العامّة تشكّل ١٩ ٪ من ميزانيّة الدولة. في وقت لاحق، رأينا أنّها تصل إلى ما يقرب من ٤٠ في المئة من الميزانيّة

نفسها. لم يتمّ هذا التوسّع الهائل لمصلحة الصالح العامّ، ولكن لصالح عمالة المصالح الخاصّة والبطالة المقنّعة.

هل نتحدّث عن أزمة أخلاقيّة؟ سيكون من الأهميّة بمكان التحدّث عن اللاأخلاقيّات. تتميّز السياسة بسخريتها، وبالتالي قتل أي فكرة تتبلور حول مدينة أفضل. يمكن ملاحظة ذلك في أعداد حالات عدم المساواة الاجتماعيّة التي تتبعثر حرفيًا، في اللامبالاة أو الحلّ الوسط، لأنّ جزءًا من المساعدات الاجتماعيّة التي تهبها الدولة لا تصل أبدًا إلى من يجب تسلّمها، أو يتمّ ابتلاعها بواسطة جمعيّات بلا اسم وبلا سمعة. لحسن الحظّ أنّ المجتمع المدنيّ ما زال يقظًا. لا يزال هنا، من خلال العديد من المؤسّسات الاجتماعيّة التي يجب الإشادة بجهودها. ماذا يفعل القادة في مواجهة علامات التحذير المستمرّة هذه؟ إنّهم يواصلون الانغماس، من دون أي ضبط أخلاقيّ، إلى مشاحنات النرجسيّة المميتة مع غرور تلك «الأنا» المتمحورة حول ذاتيّتهم والانكفاء عليها.

لكنّ الأزمة سياسيّة أيضًا. السلطة تذوب في الابتذال على الصعيد الأفقيّ حيث الكلّ يستأثر بالسلطة ولكن لا أحد فيها يحكم. إنّ الخداع مماثل للذكاء السياسيّ، وإلقاء المسؤوليّة الواحد على الآخر أصبح فنًّا مستهلكًا للسياسة. الأنا المتضخّمة لدى الشخص الذي يمارس السلطة أصبحت القيمة الوحيدة المشتركة. لم يعد هناك مكان للأخلاق، فالأخلاق تبدأ بمراعاة وجود الآخرين. أصبحت الأزمة السياسيّة تقليدًا. وهي تقترن بعبوديّة طوعيّة من الناخبين، ممّا يكشف عن منافسة غير صحيّة من أجل لبنان الذي أصبح جثّة أكثر منه كائنًا حيًّا. والنتيجة هي انحدار على مستويات متعدّدة. لقد تعرّضت صورة لبنان الديمقراطيّ لأضرار جسيمة، ناهيك عن الصدى المتردّد حول الحكم اللّبنانيّ النموذجيّ، والقدرات الفريدة التي تتمتّع بها مواردنا البشريّة، والهبوط الهائل في عملتنا.

٢. التنديد بالطائفيّة أو إعادة النظر في الانكفاء على الهويّة، واختفاء المساحة العامّة

إنّ ثورة ١٧ تشرين الأوّل (أكتوبر) هي تنديد بالطائفيّة. تبدأ الطائفيّة دائمًا بالحدَّين المشهورين: «نحن وهم»، وهما جسمان متميّزان ومستقلّان عن بعضهما البعض في التصوّر والممارسة (جورج غورفيتش Georges Gurvitch). يقدّم هذا الثنائيّ المتناقض نفسه كمبدأ للمعرفة، لأنّه وسيلة لمعرفة الآخر على المستوى الفكريّ والإنسانيّ، مع العلم أنّه يوجد دائمًا جدار فاصل بينهما.

بالنسبة إلى فريدريك معتوق، أحد أبرز علماء الاجتماع والمفكّرين العرب، تمّ تحقيق الاندماج السياسيّ في مجتمعاتنا العربيّة حول مبدأ الطائفيّة، ممّا أدّى إلى مجتمعات تفصلها معرفتنا غير الكافية عن الآخر والتي تحدّ من التقدّم الاجتماعيّ[١٥].

لقد أظهرت الدراسات والأبحاث الاجتماعيّة حول المجتمعات العربيّة والشرق أوسطيّة أنّ جعل أصول الطائفيّة تعود إلى الدين أمر خاطئ تمامًا ولا أساس له. هذه الطائفيّة الفاصلة بين «نحن وهم»، في المجتمعات المنقسمة، تستمدّ قوّتها وشرعيّتها من التراث الثقافيّ والاجتماعيّ المهيمن. الطائفيّة غائبة تمامًا عن النصوص المقدّسة. لا نجد أي أثر مهمّ لها لا في نصوص الأناجيل ولا في آيات القرآن الكريم. في الواقع، هذه الروح الطائفيّة هي جزء من الحيّز السياسيّ والثقافيّ المُعاش، ولا يكمن في السياق الدينيّ.

الطائفيّات المختلفة، سواء كانت طائفيّة أو دينيّة، هي أنظمة عاموديّة فكريّة وسلوكيّة. إنّها تهتمّ فقط بالخيرات الدنيويّة وباكتسابها، وليس بالتأمّل الروحيّ أو الاتّحاد مع خالق هذه الخيرات. إذا كان الايمان يلتمس وجود مؤمن بعقيدة ما، فإنّ الروح الطائفيّة، بالمقابل، تلتمس دعم الفرد الذي يخضع لها في سعيه الحصريّ وراء المصالح الماديّة الخاصّة بالجماعة الطائفيّة. هذه الأخيرة قائمة على رمال متحرّكة من القيم والتقاليد والمصالح الخاصّة، وليس على مبادئ ثابتة مثل الإيمان. إذا دخل المؤمن في علاقة روحيّة مع إلهه، فإنّ الشاغل الأساسيّ للروح الطائفيّة هو الطاعة العمياء للزعيم، زعيم الجماعة. لا تعطي الروح الطائفيّة الأولويّة لاكتساب الإيمان والخيرات الروحيّة، ولكنّها تسعى دائمًا إلى الانتصار على الجماعة الأخرى، وتتلهّف إلى خيراتها. غاية الدين هي تحقيق الخيرات الروحيّة، والغاية من الطائفيّين هو الحصول على الخيرات الماديّة وجميع مجالات الاقتصاد (الغلب بالعربيّة). بالنسبة إلى ابن خلدون، هذا الغلب هو سمة من سمات روح وسلوك السياسيّين وغير السياسيّين الذين تسيطر عليهم الطائفيّة. هذا هو بالضبط ما نتبيّنه اليوم في لبنان، لأنّ الدَّين العامّ هو في الواقع عمليّة استيلاء ونهب متنكّر لممتلكات اللّبنانيّين. المسافة بين الدين والروح الطائفيّة تشكّل هاوية هائلة، من وجهة نظر فكريّة وروحيّة وأخلاقيّة. إذا كان الإيمان يسعى إلى وضع الإنسان على المستوى الكونيّ، فإنّ الروح الطائفيّة تدفع الجميع إلى الانكفاء على أنفسهم وعلى جماعتهم الطائفيّة. إنّ

١٥. فريديريك معتوق، أستاذ علم الاجتماع في الجامعة اللّبنانيّة وكان له أثر في الدراسات الاجتماعيّة. له كتاب حول العصبيّة في ثلاثة أجزاء يتطرّق فيه إلى الطائفيّة كمفهوم مؤسّس للعلاقات الاجتماعيّة في العالم العربيّ.

وحدة اللّبنانيّين، من جميع الجماعات، وضمن الثورة المستمرّة، لهي شهادة واضحة على أنّ الطائفيّة العميلة هي من أسوأ العلل التي نعاني منها !

٣. التنديد بنمط العيش ومتغيّراته...

ثورة ١٧ تشرين الأوّل (أكتوبر) هي تنديد لنمط العيش الذي ألزمنا به الساسة اللّبنانيّون. في نمط العيش، الخطأ هو الذي يكون له ما يبرّره دائمًا في حين أنّ ما هو حقيقيّ وصحيح يتمّ دائمًا إعادة النظر فيه. يتمّ إهمال المساءلة أو تجاهلها أو حتّى نسيانها، لأنّ الأمر يستغرق وقتًا حتّى تكتمل. لذلك فإنّ الإفلات من العقاب هو الذي يصبح القاعدة المتّبعة بمكر.

في نمط العيش هذا، يتمّ إغلاق المصعد الاجتماعيّ من قِبَل السياسيّ الذي يحرس بابه. يجب على المرء أن يصبح الرهينة المتذلّلة لهذا الأخير من أجل التقدّم في الحياة. إنّه عهد الرشاوى والتسويات الدنيئة للواسطة التي يستنكرها الجيل الجديد. هذا هو السبب في أنّ الطبقة الحاكمة لا تتجدّد، والنظام محصور بلاأخلاقيّة ممارساتها.

في نمط العيش، يسود قلق الغد من دون شراكة وكذلك جميع أنواع القيود التي تنتهك سيادة القانون. الخوف من الآخرين هو الذي يتربّص بهم في كلّ مكان. تتفاقم المعاناة من دون التمكّن من رؤيتها والإصغاء إليها.

في نمط العيش هذا، لا يستطيع أحد أن يأخذ الوقت الكافي للتفكير بشكل فرديّ أو ضمن مجموعة. فقط كلمة الزعيم هي التي تعلو، بكلّ ما تحمله الزعامة من معنى، ويجب أن نُصغي إليه ونردّدها. في نمط العيش هذا، لم يعد هناك مواطنون أحرار قادرون على رفع أصواتهم للاحتجاج، لأنّهم يستسلمون لوضعيّة الأشخاص المجاملين والمتذلّلين المضطرين لأن يشعروا بالذنب إذا تجرّأوا على اتّخاذ موقف الحياد عن الكلمة ذات القوّة الكليّة التي يتفوّه بها الزعيم.

في نمط العيش المقترن بنظام يتلاعب بالطائفيّة، يعزّز المرء آليّات الخوف من الآخر، ومن الغريب، وحتّى من أفراد عائلته. الشخص المستقلّ، الذي نؤمن به، يصبح بالتالي زبونًا ويتوقّف عن كونه مواطنًا. إنّ حلاوة التعاطف السلميّ الذي يتمتّع به العيش معًا يغلب عليها عنف الكراهية والعدوانيّة. نحن نبحث دائمًا عن دعم أجنبيّ لمجموعتنا، لأنّنا لم نبلغ سنّ الرشد.

في مواجهة هذه الصورة السوداء، نشأ واقعٌ أساسيّ وجديد وفرض نفسه علينا: إنّه الجيل الجديد. لقد فهم الشباب اللّبنانيّ كلّ شيء لأنّهم نضجوا. فليباركهم الله وليرشدهم القدّيس يوسف. في هذا القرن الجديد في بلدنا، حان الوقت لبناء لبنان جديد، لبنان المواطنين المتساوين في الحقوق والواجبات، لبنان الشفافيّة، والمحاسبة، ولبنان الجدارة وليس دولة الزبائنيّة.

بفضل قوّة وسائل التواصل الاجتماعيّ، لا يحتاج الجيل الجديد إلى السفر حول العالم ليفهم أنّ هناك بديلًا آخر لممارسة السلطة في لبنان كما بناها جيلنا. إنّهم يدركون بوضوح كيف ينبغي أن يكون بلدهم، بلد احترام سيادة القانون، وعدم الفساد وغياب أي «واسطة» مهينة. الشباب والأقلّ شبابًا من الجيل الجديد، يشكّلون، مع الشتات اللبنانيّ، آفاقًا دوليّة وشبكة تشكّل خطرًا حقيقيًّا على السلطة الطائفيّة. وبما أنّ السياسيّين اللبنانيّين ليسوا قدوة يُحتَذى بها، فإنّ الجيل الجديد يفضّل عليهم الاقتداء برجال الدولة ونسائها في رحاب العالم.

الشباب والأقلّ شبابًا لم ولن يتوقّفوا عن التظاهر وهم يحملون علم لبنان، علم اللاعنف. تُعتَبَر كلّ مظاهرة أخذ مسافة من الألم لا بل هي وسيلة لدرئه والسيطرة عليه. في الثورة، نلتفّ حول رموز وطنيّة قويّة، مثل علم الوطن أو النشيد الوطنيّ. يشعر المرء بغضب مبرّر من مؤسّسات الدولة التي تنقلب على أولئك الذين يطالبون باحترام حقوقهم وترميهم في السجن. منذ شهر تشرين الأوّل (أكتوبر) ٢٠١٩، وضعت هذه المظاهرات إطارًا للولاء الوطنيّ بالإضافة إلى إطار مرجعيّ أخلاقيّ يجب أن يمتثل لجميع الأبحاث المتعلّقة بالحلّ السياسيّ والاقتصاديّ. إلا أنّنا ما زلنا بانتظار سلطة قضائيّة مستقلّة تمّ تحريرها نهائيًّا من ولاءاتها السياسيّة والطائفيّة، حتّى يتمكّن القضاء في نهاية المطاف من وضع حدّ لحكم الإفلات من العقاب من خلال المساءلة.

ترفض أجيالنا الشابّة عدم المساءلة والإفلات من العقاب. كانت حركة الشباب ولا تزال ثورة مواطنة لاستعادة الكرامة المنهارة والمساحة العامّ المجتزأة ضمن مناطق النفوذ. إذا كانت الطبقة الحاكمة تحدّ ممارسة السياسة بعلاقات إنتهازيّة زبائنيّة، يرفض اللّبنانيّون أن ينخدعوا بوعود غامضة تتعلّق بالإصلاحات. إنّهم يندّدون بعدم مسؤوليّة حكّامهم بشأن مسائل حيويّة متعلّقة بالخدمات العامّة، مثل الطاقة، والنفايات المنزليّة، ناهيك عن الأزمة الماليّة المستعرة والتي تقوّض مستقبل البلاد. لا يزال المواطنون مروّعين، مثل عدد كبير من المراقبين الأجانب الملتحقين ببلدنا، من دولة انعدم فيها القانون، دولتنا، ومن عدم احترام قوانين الجمهوريّة وكذلك التطبيق المجتزأ لها.

القسم الثالث : إستجابة الجامعة

الجامعة، بشكلٍ عامّ، ولا سيّما في حالتنا، نحن الذين ساهمنا منذ ١٤٥ عامًا في بناء هذا البلد بناءً معنويًّا وماديًّا، لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تصمت أو تتجاهل معاناة شعبنا وكذلك تحدّيات إعادة بناء وطننا. لا يمكن للجامعة أن تكون محايدة لأنّها ليست حزبًا سياسيًّا ولا تشارك في الاستيلاء على السلطة. إلا أنّ للجامعة سلطتها الأكاديميّة والأخلاقيّة. في داخلها تمّ تشكيل معيار الحياة العامّة في المدينة. اليوم، تأخذ جامعة القدّيس يوسف على عاتقها قضيّة هي قضيّة كلّ مواطن لبنانيّ. قضيّتنا هي إعادة بناء وطننا لبنان أخلاقيًّا وروحيًّا وماديًّا. الأمر لا يتعلّق بإعادة بناء هذه الطائفة أو تلك، بل بإعادة بناء لبنان بجميع مكوّناته الاجتماعيّة. مهمّتنا تكمن في تزويد شبابنا بكلّ الأدوات والوسائل الضروريّة لبناء لبنان المواطنة والحسّ المدنيّ، لبنان كدولة قانون وكديمقراطيّة. أرى أنّ هذه المهمّة تنمو ضمن المحاور الثلاثة التالية:

١. نداء ٢٧ تشرين الأوّل (أكتوبر) : أبعاد الإعلان المشترك بين الجامعة الأميركيّة في بيروت وجامعة القدّيس يوسف

تماشيًا مع روح الإعلان المشترك ورسالته التي وقّعها في ٢٧ تشرين الأوّل (أكتوبر) ٢٠١٩ رئيس جامعة القدّيس يوسف ورئيس الجامعة الأميركيّة في بيروت، فإنّ العمل من أجل التغيير سيستمرّ ويتطوّر. هذه الوثيقة ليست نصًّا ظرفيًّا يأتي لدعم ثورة، ولا ردّ فعل عابر على حدث، ناهيك عن تعبير انتهازيّ يسعى إلى وضع نفسه على رقعة الشطرنج السياسيّة في الوقت الراهن. يعبّر هذا الإعلان عن قناعة جامعتَينا بأنّ الطريقة التي يُدار بها هذا البلد، من خلال الزبائنيّة الجامحة والوقحة، لا تؤدّي إلاّ إلى تبديد ثرواته الماديّة والفكريّة.

يسلّط هذا الإعلان الضوء على ما دأبت جامعة القدّيس يوسف لفترة طويلة على إعلانه، خاصّة منذ العام ١٩٧٥، بأنّ الانتماء المواطنيّ وحده للبنان هو الطريق الملكيّ الذي يمكن أن يعالجه من أمراضه، أي الزبائنيّة الاجتماعيّة والسياسيّة، والفساد، وانعدام المساءلة، والتلاعب بالدين والإهمال.

تعترف المواطنة بكلّ واحد منكم في خصوصيّته الفرديّة وانتمائه إلى المجتمع الوطنيّ. تعمل الجامعتان على تدريب أفضل المهارات الأكاديميّة والمهنيّة في لبنان وبلدان المنطقة الملتزمة بقضيّة المواطنة. وكما يقول شعار اتّحاد جمعيّات قدامى الطلّاب في جامعة

القدّيس يوسف، «الاتّحاد، من خلال جمعيّاته، يشكّل قوّة من المواطنة والمواطنين في خدمة لبنان».

بالتالي، القول إنّ الحركة الشعبيّة هي «قفزة وطنيةّ أصيلة» وإنّها تشكّل «أكبر حركة وطنيّة موحّدة منذ العام ١٩٤٣، والتي تعبّر بعمق عن معاناة شعبنا واحتياجاته، ورغبته الهائلة بإعادة بناء بلدنا على أسس جديدة»، لهو تأكيد لتصوّر لا يشكّك أبدًا في صحّة الرسالة التي أراد شعبنا نقلها إلى قادته وإلى نفسه. طوال السنوات الثلاث الماضية، كنت أحذّر باستمرار، من أعلى هذه المنصّة، من المآسي التي نعيشها حاليًا. لكنّ المأساة الأكبر هي قلّة الإصغاء إلينا وأنّ الحركة الشعبيّة تُعتَبَر مؤامرة يثيرها عملاء مأجورون للمصالح الأجنبيّة في البلاد.

إنّ دعم الحركة الشعبيّة وإعلانها لبنانيّة أصيلة يتطلّب اتّخاذ خطوة بسيطة للغاية قمنا بها. «جامعتانا اللتان تلتزمان تاريخيًّا في بناء لبنان الكبير، منذ إنشاء دولته، لا يمكنهما إلاّ الانضمام إلى التزام المعلّمين والطلاّب والموظّفين الإداريّين والقدامى الذين يكافحون من أجل حقوق جميع اللّبنانيّين بلا استثناء».

ويتبع هذا الالتزام نداءٌ إلى حكّامنا حتّى يتمّ اتّخاذ مبادرات حقيقيّة تجاه مطالب هذه الحركة: «يجب على السلطات الرسميّة اللبنانيّة أن ترحّب بالروح الجديدة التي يحملها كلّ اللّبنانيّين، والتي تدعو إلى الوحدة وإلى لقاء جميع اللّبنانيّين، وإلى دولة مدنيّة تتجاوز الطائفيّة وتقاسم المصالح، وقائمة على أساس قيم الحريّة والأخوّة والمساواة والعدالة والحقوق والواجبات للجميع».

حتّى اليوم، لا نرى التدابير اللازمة للخروج من المأزق. إنتهى إعلاننا بالنداء التالي: «ما زلنا مستعدّين للمساهمة في أي حلّ يفتح الباب أمام الخلاص الوطنيّ». لقد تمّ تشكيل حكومة فنأمل من كلّ قلبنا أن يتمّ إنشاء ديناميكيّة جديدة للحكم من أجل العمل على التغيير الحقيقي الذي يتناول لا الظاهر فقط بل يصل الى الوجدان الأخلاقي والثقافي وهو أساس كلّ تغيير من أجل استرداد حرية الفكر والسلوك.

٢. نداء إلى يقظة الفكر اللّبنانيّ

الأزمة الأخلاقيّة والفكريّة الحاليّة هي استمرار لأزمة جامعيّة وأكاديميّة. في مواجهة مأزق النظام السياسيّ الطائفيّ اللّبنانيّ، والأزمات المتعدّدة التي تهبّ على البلد، ما هي

مساهمة الجامعة، بما في ذلك جامعتنا؟ بصرف النظر عن المؤسّسة الأكاديميّة المتردّية التي تمنح شهادات زائفة، فإنّ معظم الجامعات اللّبنانيّة، بما في ذلك جامعتنا، لم تكن قادرة على اتّخاذ موقف عادل في مواجهة التحدّيات التي يطرحها مأزق النظام الطائفيّ اللّبنانيّ ومختلف الأزمات التي تهزّ البلاد. إنّ التكاثر الفوضويّ الذي شهدته المؤسّسات الجامعيّة، في غضون عشر سنوات، (لدينا حاليًّا ٥٨)، أدّى إلى تفاقم اللّيبراليّة الوحشيّة على الطراز اللّبنانيّ ممّا جعل الجامعة أداة من بين أدوات أخرى في خدمة الزبائنيّة الطائفيّة أو السياسيّة.

إنّ البحث العلميّ في الأمور الاجتماعيّة والسياسيّة هو الذي دفع ثمن سوء الإدارة هذا في أكثر من مجال تمّ إهماله: الهويّة الوطنيّة، والنظام القانونيّ والدستوريّ، ووضع التعدديّة، وحوار الثقافات، وسمة المواطنة، إلخ. في ضوء التاريخ الأكاديميّ اللّبنانيّ، كانت الجامعة هي البوتقة الرئيسيّة للفكر اللّبنانيّ في الدولة وواقع المواطنة. سياسيّونا ليسوا بمفكّرين. إنّهم من هواة القتال باللّكمات والقدح والذمّ، وهم غير قادرين على بناء المستقبل لأنّهم يفتقرون إلى رؤية إستشرافيّة تستند إلى العلم. الجامعة هي الطريق الملكيّ الذي يسلكه الفكر اللّبنانيّ القادر على مواجهة إحباطنا الحاليّ.

برأيي، مجرّد التغيير السياسيّ لا يكفي لأنّه حلّ يفرض نفسه من فوق. سيكون من الصعب قبوله. من ناحية أخرى، أرى ثلاثة مستويات على صعيد يقظة الفكر اللّبنانيّ: الديموقراطيّة ؛ والإصلاح الإداريّ والثقافة. ١) الديموقراطيّة المباشرة، بشكلٍ متكرّر وبأشكال متعدّدة، تمنح اللّبنانيّين سلطة معاقبة حكّامهم، بمشاركة نسائيّة كبيرة، تبدو أساسيّة بالنسبة إليّ لأنّني، بحسب ما أعرف، يمكن أن تكون النساء أقلّ غوغائيّة من الرجال. يمكن ممارسة هذه الديموقراطيّة من خلال نظام سياسيّ، متحرّر من الطائفيّة، يتجاوز الطائفيّة من دون إلغاء الحدّ الأدنى من تمثيل الجماعات. إنّها ديموقراطيّة تراعي نضج هويّتنا اللّبنانيّة وتوافقنا وقناعتنا بأنّ لبنان هو مصيرنا المشترك، وفقًا للدستور اللّبنانيّ. ٢) وكذلك الأمر، فإنّ الإصلاح الإداريّ الأساسيّ هو الاستراتيجيّة التي تفرض نفسها في بداية القرن الثاني من وجود بلدنا. إصلاح يحتفظ بأفضل المهارات لخدمة البلاد. ٣) هل اللّبنانيّون غير قادرين على القيام بنهضة جديدة من شأنها أن تُحدث ثورة في الثقافة اللّبنانيّة في جوانبها الدينيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة والسياسيّة؟ إنّ نهضة ثقافيّة بهذا الحجم قد تجدّد مجتمعاتنا ومجتمعات الدول العربيّة. إنّ الجامعة، كلّ جامعاتنا، مدعوّة لتصبح فاعلة في التغيير الثقافيّ وليس مجرّد ناقلات للمعرفة والمهارات.

٣. دعوة إلى يقظة الهويّة اللّبنانيّة

عندما نذكر الهويّة الوطنيّة اللّبنانيّة، نشير إلى خصائص الشخصيّة اللّبنانيّة. في ضوء الأعمال الأخيرة في العلوم السياسيّة، توجد شخصيّة مثل هذه تعكس روح الشعب، كما يُشير أندريه سيغفريد André Siegfried[١٦]، عالم الأنتروبولوجيا البارز والفيلسوف السياسّي المعاصر. في الفلسفة السياسيّة، نتّفق على أنّ الهويّة لها بعدان أكّدهما بول ريكور Paul Ricœur[١٧]. من ناحية، الهويّة المماثلة التي تنظر إلى الماضي من أجل استخراج سماته المشتركة والدائمة، بدءًا من تاريخ الشعب، والتي يرثها الفرد والجماعة في آنٍ معًا. من ناحية أخرى، هويّة الذات التي تسعى في الوقت الحاضر إلى العناصر المكوّنة التي تشكّلها بشكلٍ فرديّ ومن حيث الاتّصال بالأفراد الآخرين في المجتمع الوطنيّ. وراء مسألة الهويّة يلوح القلق الأساسيّ لهؤلاء المثقّفين وهو وحدة التعدّد. كيف يمكننا أن نفكّر بوحدة الوطن من دون التشكيك في التنوّع الذي يكمن وراءها والذي يترجم الحريّة على جميع المستويات، حتّى لو كانت حريّة التمكّن من تكوين مجتمع مع الآخرين داخل الوطن نفسه.

بعض الملاحظات تفرض نفسها. في الهويّة المماثلة، يجب ألاّ نقلّل من أهميّة ما يتعلّق باللاوعي والذي يشكّل جزءًا من كياننا الفرديّ والجماعيّ. إنّ مفكّري العلوم السياسيّة والاجتماعيّة لا يتحدّثون عن هويّة الشعوب الوطنيّة كما لو كانت غنيّة عن التعريف. إنّهم يعالجونها كمشكلة. إقامة رابط بين الماضي والوقت الراهن يطرح أكثر من مسألة، طالما أنّ الوقت الراهن ليس هو نفسه بالنسبة إلى الجميع. الملاحظة الثانية هي أنّنا يجب أن نتجنّب جعل هذه المشكلة مأساويّة وهي التي لا يمكن بأي حال حلّها بالعنف على الرغم من التناقضات. على الصعيد اللّبنانيّ، لقد قام سمير فرنجيّة[١٨] بتحليل وجهة النظر هذه بشكلٍ جيّد.

---

١٦. André Siegfried (1875-1959), L'Âme du peuple.
كتاب صدر في العام ١٩٥٠ وأصبح من المؤلّفات الكلاسيكيّة في مجال العلوم الاجتماعيّة

١٧. بول ديكور (١٩١٣-٢٠٠٥)، في كتابه « Soi-même comme un autre“ ، يوضح معنى مفاهيم الهويّة الذاتيّة والهويّة التطابقيّة والهويّة السرديّة.

١٨. Samir Frangié, Voyage au bout de la violence, Coédition l'Orient des Livres-Actes Sud, 172 pages.

لن أخوض في تفاصيل إشكاليّة الهويّة الوطنيّة اللّبنانيّة. في ما يتعلّق بالهويّة المماثلة، أكتفي بنقل ما قاله البطريرك الحويّك في رسالته والذي يشاركه فيها جميع اللّبنانيّين: التديّن، واللّغة العربيّة، والنبل هي عناصر دائمة لهذه الهويّة المماثلة، كإرث من الماضي. من الواضح أنّ البطريرك الحويّك كان يستبق الرابط الذي يتوجّب تعزيزه بين اللّبنانيّين تحت مصطلح محبّة الوطن وأبنائه حتّى ينجح لبنان هذا في دعوته[١٩]. هناك، بعد مسافة ٩٠ عامًا، نوعٌ من استباق إعلان الأخوّة البشريّة الذي أعلنه معًا كلٌّ من البابا فرنسيس وإمام الأزهر أحمد الطيّب في شهر شباط (فبراير) ٢٠١٩. نقد الحويّك القاسي ضدّ الفساد الذي يتنكّر لدولة القانون، يذكّرنا أنّ هذا الأخير هو ضمان للهويّة الوطنيّة. وبالتالي، فإنّ لبنان مدعوّ إلى تغيير دائم حتّى يصبح دولة.

بالنسبة إلينا، يبقى لبنان التعدّديّ ويجب أن يستمرّ في الوجود حتى يمكن لهذا التغيير أن يستمرّ. وهكذا فإنّنا ننتقل بخيالنا السياسيّ - ليس كفكرة لا تتحقّق، بل كمبدأ رجاء - نحو إعادة بناء دولة القانون، وهي شرط وجود لبنان.

يفترض بناء الدولة ظهور المواطنة التي تنطوي على المسؤوليّة الشخصيّة التي تستوجب الشعور بالفرديّة. يتحقّق ذلك بفضل أعظم وسيلة نجاح في لبنان، ألا وهي التعليم. بالتالي، تتحقّق حريّة الفرد فيما يتعلّق بالمجموعة التي ينتمي إليها. لقد أكّدت ثورة تشرين الأوّل (أكتوبر) هذه العمليّة بشكل واضح وحتميّ ونهائيّ. في هذه الثورة، توجّهت الجامعة إلى الميدان ليس للإعلان عن نفسها، ولكن لتصبح جامعة تعمل على رعاية التغيير وتعليمه، مثل كليّة الحقوق هذه التي درّبت وما زالت تدرّب المواطنين الذين يتعلّمون الحقوق للدفاع عن حقوقهم وحقوق مشاركيهم في المواطنة. بالتالي، حتّى لو لم تحقّق الثورة كلّ أحلامها وجميع أهدافها بعد، إلاّ أنّها حركة وعي لا جدال فيها من أجل ضرورة تحقيق هذا الشكل من أشكال الحريّة الذي يجمع بشكلٍ متناغم الانتماء إلى الوطن من دون التنكّر للانتماء إلى الجماعة المجرَّد من الطائفيّة. هذان السجّلان للانتماء لا يُستنفدان ولا يقضيان على بعضهما البعض. لهذا السبب، ووفقًا للانقسام الثنائيّ، تشبه الممارسة الطائفيّة للسياسة أنين المحتضر بدل أن تشبه أنفاس الحياة. نحن ندرك خطر الانزلاق القبليّ في بلدنا حيث لا يزال العديد من مواطنينا مشوّشين وممزَّقين بين وعيهم للمواطنة والانتماء إلى الجماعة.

١٩. موضوع يتكرّر بتواتر في رسالة البطريرك الرعويّة.

ونحن إذ ندرك هذا الأمر، لن نلجأ إلى أسطورة تأسيسيّة تعرّف الهويّة اللّبنانيّة. يبدو لنا، وباقتناع، أنّ العيش اللّبنانيّ معًا، القائم على دعوة تاريخيّة أو على علّة وجود لبنان، لم يتمّ تحقيقه بالكامل، ولكنّه لا يزال ورشة عمل دائمة. من أجل الحفاظ عليه وتجديده، نواجه سلسلة من الخيارات التي غالبًا ما تكون مستحيلة: بين الانتماء إلى الجماعة وتأكيد الفرد لذاته؛ وبين العدل والسلام المدنيّ. نحن مدعوّون للدخول في مصالحة مع الحقيقة النابعة من الخبرة الفرديّة ومن التجارب المشتركة والمقارنة، والتي تتمّ مواجهتها ومناقشتها. إنّ المصالحة مفيدة وعلاجيّة عندما تحرّض المعرفة الحقيقيّة على الاعتراف بالآخر؛ لهذا السبب نجدها متجذّرة في ثقافة العلاقة.

الخاتمة : من الكتاب الأسود إلى الكتاب الأبيض

في ختام هذا العرض، ومن أجل تكريم الذكرى المئويّة الأولى لإعلان ما نحن اليوم عليه من قوّة، لبنان الكبير، بقيمه وطاقة شعبه، من شهدائه الأموات والأحياء، وكذلك ١٤٥ عامًا من وجود جامعتنا، يجب أن ننتقل، بشكلٍ طارئ، من كتاب الواقع اللّبنانيّ الأسود إلى الكتاب الأبيض الذي ينطوي على التغييرات والإصلاحات. في هذه الأوقات حيث نواجه الأمواج العاتية، نريد أن نؤمن بقدرتنا على التعافي من أجل صنع مستقبلنا وتعزيزه، وذلك بفضل براعتنا وإبداعنا. نحن نعتمد على أنفسنا، وعلى عزمنا على البقاء في أرض أجدادنا. نحن نعتمد على مهارتنا من أجل أن نبتكر لكي ننقذ وظيفة شبابنا، لا سيّما الخرّيجين الثلاثة ألف لدُفعة الذكرى ١٤٥ على تأسيس جامعة القدّيس يوسف. نحن نعتمد على توطيد أواصر علاقاتنا مع الشتات اللّبنانيّ لكي يكون هذا الشتات مصدر إلهام ودعم معنويّ ومادّي من أجل إنشاء مركز توظيف في جامعة القدّيس يوسف، وتطوير العمل عن بُعد بواسطة ريادة الأعمال، وتطوير صناعة الأدوية اللّبنانيّة. كمثال، نذكر اللّجنة المكوَّنة من عدّة جامعات ومستشفيات التي تجتمع لهذا الغرض تحت قيادتنا. نقترح إطلاق مسابقة حول أهمّ عشرة ابتكارات لبنانيّة على مدى السنوات العشر الماضية. نتمنّى مواصلة حملتنا وتعزيزها لجمع التبرّعات وقد أطلقتها جامعة القدّيس يوسف في العام ٢٠٢٠ من أجل مساعدة الطلاب المحتاجين. سوف نُطلق إصدارًا خاصًّا من مجلّة USJinfo لبنان الكبير حيث سينشر معلّمونا، وباحثونا، وطلاّبنا وقدامى طلاّبنا بكلّ حريّة نتائج استطلاعيّة وما إلى ذلك. إنّها أفكار ومبادرات تميّز زمن الجامعة ولبنان وهي، علاوة على ذلك، تعبير عن التفاؤل الأكاديميّ والجامعيّ والرجاء في أنّ لبنان جديد يولد من جديد.

بعد ١٤٥ عامًا، ماذا نقول عن مستقبلنا إن لم يكن تجديدًا لوعد هؤلاء اليسوعيّين بإنشاء مؤسّسة تكون في خدمة التميّز الفكريّ والأخلاقيّ للوطن. كان جورج نقّاش قد قال، لمناسبة الذكرى الخامسة والسبعين لتأسيس جامعة القدّيس يوسف، في مقال مشهور نُشر في مجلّة لوريان في العام ١٩٥٠: «هذا المثلّث الرمادي الكبير في قلب المدينة القديمة، أوَ ليس تاريخه هو تاريخ لبنان المعاصر كلّه؟ من أجل تحديد الدور الذي لعبته جامعة القدّيس يوسف في النهضة اللّبنانيّة، نحتاج فقط إلى تخيّل الثغرة الهائلة التي قد تُحدثها هذه المؤسّسة، اليوم بالذات، إذا اختفت.»[٢٠]

جورج نقّاش، أيّها المدعوّون الأعزّاء في هذه الأمسية والأصدقاء الدائمين، سنبقى دومًا من الوطن، وجامعة القدّيس يوسف تواصل وسوف تواصل مهمّتها لكي يكون لبنان البشريّ، لبنان الرسالة والحريّة والعدالة، أكبر وأكبر !

٢٠. Georges NACCACHE, Editorial de L’Orient. Beyrouth, 30 avril 1950.